يوحنا الدمشـــقى

JOHANNES DAMASCENUS

للدكتور جواد على

تتمة

ومن آراء هذا القديس أن النبي الكريم كان قد تلقى تعاليمه من أحد أتباع «آريانوس» "Arius" "Arianers" (المتوفى سنة ٣٣٦ للميلاد) والذى كان قد أنكر ألوهية المسيح فحرمه مجمع نيقيا "Nikäa" الذى انعقد فى عام ٣٥٣ للميلاد ، ثم أكد هذا التحريم المجمع (Synod) الثانى الذى انعقد فى القسطنطينية . وكان من أشد خصومه (أثناسيوس) Athansius رئيس أساقفة الاسكندرية القائل على العكس بألوهية المسيح[1].

وهو قول ردد صداه المستشرقون فيما بعد : وقد فاتهم بأن البدعة «الأريوسية» أو «الآريانية» لم تكن معروفة فى البلاد العربية ، فلا يمكن أن يكون الرسول قد تعرف إلى أحد من أتباع هذه الشيعة . وقد فاتهم أيضاً بأن النسبة إلى «الأريوسية» كانت شائعة بين الفرق النصرانية ، فكانت كل شيعة من الشيع النصرانية تنسب الشيعة المعارضة لها إلى هذا الإسكندرى الذى حرمته مجامع المسيحيين . وقد سلك يوحنا فى مواضع من مياصره مع «المنوفيسيتين» والمعارضين الآخرين نفس هذا السلوك ، ونسبة دراسة النبي على أحد «الأريانيين» — وهو قول واهٍ لا تؤيده الشواهد التاريخية — هو من هذا القبيل[2].

وخلاصة ما يمكن أن يقال ، هو أن يوحنا كان قد خاف على دينه من الزوال ، وهو رجل دين وصاحب عقيدة ، وأنه وهو فى بلاط خليفة دينه يخالف دينه عرضة للمناقشة فى الدين وهدف للجدال كما كان يحدث ذلك دوماً لكل ذمى يتولى مركزاً سامياً فى قصور أمراء المسلمين . وقد ساءه ما رآه من دخول أبناء دينه أفواجا أفواجا فى الإسلام ، فأراد أن يضع لهم منهجاً ثابتاً فى الكلام وطريقاً واضحاً لإخوانه من أبناء دينه كما يفهم ذلك من مياصره ومن كتابه الذى ألفه فى الرد على المسلمين .

وغريب أمر أولئك الذين يتصورون بأن المسلمين الأولين كانوا كالحجارة الصم لا يحسنون سؤالا ولا يدرون جواباً . وفى القرآن الكريم والحديث الشريف والسير والمغازى والأخبار أسئلة وأجوبة مختلفة فى مسائل الكون والعالم والبعث ويوم الدين والأفعال والأعمال والخطير من الدنيا والحقير ، وهم إن شكوا فى كل شيء فلن يستطيعوا الشك فى صحة القرآن وفى صحة روايته كما كان ينطق به الرسول . والقرآن وحده كفيل وخير شاهد على صحة ما نقوله .

ولا عبرة ببعض ما ورد فى بعض الكتب مثل ما جاء فى «كنز العمال» من أن القدريين سموا بهذا الإسم لأنهم «اشتقوا قولهم من النصارى» أو عبارة «اشتقوا قولهم من قول النصارى»[1] إذ ورد فى الأخبار «القدرية مجوس هذه الأمة»[2].

ولو ذهبنا مذهب بعض المستشرقين ومذهب أهل الرأى والقياس لوجب علينا أن نقول بأن القدرية أخذت قولها هذا من المجوس ، وهو قول يناقض المعروف ؛ إذ المعروف بأن المجوس كانوا يقولون بالجبر لا بالاستطاعة والاختيار .

الحق أن ما ذكره يوحنا وما بنى عليه بعض المستشرقين هو من قبيل «الأفكار العامة» التى تخطر على كل بال ، من قبيل تلك الأفكار التى ترددت على عقول البشرية منذ أول يوم هبوطها على سطح الأرض حتى اليوم . إنها من قبيل الأفكار العامة التى عالجتها أدمغة الوثنيين كما عالجتها أدمغة أصحاب الأديان بل وحتى الشعوب الابتدائية والقبائل البدوية ، وما كان ظهور مثل هذه الأفكار فى الإسلام بحادث غريب وقد عالج الإسلام أموراً أعقد من المواضيع التى نتحدث الآن فيها بكثير .

ولنعد الآن إلى الموضوع . ظهرت فى الإمبراطورية البيزنطية المسيحية وفى ردهات المسيحية فكرة غريبة هى فكرة «تحريم الصور» (Ikonoklasten) وقد انتشرت هذه الفكرة بسرعة كبيرة فى سوريا وفى مصر وفلسطين . فتحطمت الصلبان وأحرقت

(١) راجع عنه O'Leary, Arabic Thought and its Place in History p, 27. London 1939.

(٢) Islam Studies. Part. I, pp, 433, M, 94, 765

(١) راجع كنز العمال ج ١ ص ٣٦ نمرة ٦٦٨ و ٦٥٢ ، كذلك Islam Studies. Part, 1, p, 441.

(٢) راجع مختصر كتاب الفرق بين الفرق وهو حديث ص ١٦

التصاوير ، ونادى الناس حتى فى الإمبراطورية البيزنطيـة بأن الصور والصلبان والزخرفة رجس من عمل الوثنية والشيطان[١].

وشاعت أسـطورة ذكرها ثيوفانس (Theophanes) خلاصتها أن أحد اليهود ، وكان يكره النصارى ، تمكن من إقناع الخليفة يزيد الثانى بضرورة تحطيم الصلبان وتمزيق التصاوير كى يطول عمر الخليفة[٢]. فأصدر الخليفة أمره فى الحال بوجوب تحطيم كل ما هو موجود من صلبان النصارى . ويذكرون أيضاً بأن إمبراطور القسطنطينية ، وهو الإمبراطور « ليو » تأثر بعد ذلك بأفكار أحد السريان ، وكان قد وقع فى أسر المسلمين ، فاعتنق الإسلام وسمى نفسه « بشراً » « بسر » Beser وغدا من أعداء الصلبان والتصاوير ، وكان ذلك فى عام (٧٢٦) للميلاد[٣] .

عندئذ أصدر الإمبراطور أمره فى عام ٧٢٦ للميلاد بتحريم الصلبان والتصاوير . وقد نفذ الأمر الامبراطورى الرسمى فى كافة أنحاء الامبراطورية البيزنطية ، وتبرم صاحبنا يوحنا من هذا الأمر الملكى الرسمى واعترض عليه بست رسائل ألفها تفنيداً لهذا الأمر ولمن قال بهذه البدعة من أتباع الملوك .

وفى هذا التحريم أصل إسلامى ملموس وإجابة لدعوة النبى الكريم، تلك الدعوة التى حققها يوم أمر بتحطيم أصنام الكعبة وأصنام الطائف وكل صنم آخر قائم . ذلك ما قاله نفر من المستشرقين[٤]. على أن هنالك جماعة أخرى رأت غير هذا الرأى ؛ رأت أن هذا التحريم مصدره تلك الفكرة اليهودية التى كانت قد حرمت تصوير المخلوقات الحيّة وقاومت التصوير مقاومة عنيفة . وقد انتقلت هذه الفكرة إلى المسلمين وانتقلت على زعمهم من المسلمين إلى المسيحيين[٥].

وتطرف هؤلاء فقالوا بأن الأحاديث التى رويت عن لسان الرسول ، والتى حرمت التصوير ، إنما ظهرت فى هذا العهد الذى أعلنت الحكومة البيزنطية فيه أمرها بتحطيم الصلبان .

ورد فى الحديث : من صوّر صورة فى الدنيا كُلّف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ »[٦]. واستعمل بعض المحدثين لفظة « تصاليب » بدلا من « تصاوير » ، قال القسـطلانى : « تصاليب أى تصاوير كصليب النصارى »[١]. وهـذا ما يجعل للمشكلة صلة بالمشكلة التى أثارها «الامبراطور ليو» فى الامبراطورية البيزنطية . ويلاحظ أيضاً بأن يوحنا لم يتحامل فى رسائله التى ألفها للدفاع عن الصليب والتصوير على المسلمين كتحامله على اليهود . على عكس ثيودور أبو قرة أحد تلاميذه الذين احتذوا حذوه ونهجوا منهجه ، فلقد تحامل هذا على المسلمين تحاملا شديداً وعنفهم تعنيفاً مراً لأنهم كانوا سبب هذا التحريم[٢]. لم تنفع هذه الحملة الصليبية التى أثارها هذا الموظف المسيحى فى بلاط أمير المؤمنين فى الشام شيئاً . قد يكون يوحنا نجح بعض الشىء فى إثارة جذوة نار تلك المشاكل الكلامية التى ظهرت قبله بزمن وفى صبها فى جداله مع المسلمين بقالب منطق يونانى أثر على أسلوب الكلام عند المسلمين، ولكنه فشل فى الحيلولة بين المسيحيين السوريين وبين الاسلام

وآثر يوحنا وهو فى أواخر حياته الاعتزال فى دير من أديرة الدنيا النائيـة ليوجه تفكيره نحو خالقه ، فاختار دير « القديس سابا » (St Sabas) قرب القدس ليكون محـله المختار[٣]. وقد ظل فى هذا الدير إلى أن جاءه أجله المحتوم بين عامى ٧٤٨ و٧٥١ للميلاد على أكثر الروايات[٤].

جواد على

(١) راجع هذه المـادة فى دائرة المعارف البريطانيـة وفى دائرة المعارف الفلسفية

(٢) راجع Theophanes Edition de Boor 401 29.

(٣) راجع Michel le Syries, Livre, XI p, 503

(٤) Islam Studies part I p, 446.

(٥) Levetts, History of the Patriachs of the Coptic 3, 72

(٦) كنز العمال ج ٢ ص ٢٠٠ القسطلانى ٨ ص ٤٨١ الزرقانى على الموطأ ٤٠ ، ٢٠٤ .

(١) القسطلانى ج ٨ ص ٤٨١ .

(٢) ثيودور أبو قرة " Theodore Abucara " أو ثاودروس أبو قرة (ويروى أيضاً أبو فارة) . أسقف حران (٧٠٠ — ٨٢٠ للميلاد) من أعظم الكتبة الكنسيين وأبرعهم فى المصنفات الجدلية والأبحاث الدينية. وعمر أبو قرة فى عهد المأمون راجع عنه كتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو اليسوعى بيروت ١٩٠٤ ، أيضاً المشرق سنة ١٩٠٣ ص ٦٣٣ ، كذلك ميامره، وقد طبعها الخورى قسطنطين الباشا أحد رهبان دير المخلص . مطبعة الفوائد لصاحبها خليل البدوى فى بيروت . أيضاً المتحف البريطانى رقم Or. 4240 كذلك R. A. Nicholson Alitesary History of the Arabs p, 221 Cambtidge. 1931

وجاء فى ضحى الاسلام ج ١ ص ٣١٤ طبعة أولى « أبوكارا » كما جاء فى الأحرف اللاتينية والصواب « أبو قرة » أو « ابو فارة » . كما جاء ذلك فى مياميره نفسها . راجع كتاب مياميره ثاودروس أبو قرة .

(٣) راجع Hitti, History of the Arabs, p, 246 3rd Edition 1943.

(٤) يقول Qailhe إنه توفى فى ٤ دسمبر من عام ٧٤٩ للميلاد . أما كتاب فيليب حتى فحوالى عام ٧٤٨ وأما كراف Graf الذى كتب عنه وأخرج مصنفاته فيرى أن حياته كانت بين عامى ٧٤٠ — ٨٢٠ للميلاد ، أى بين عامى (١٢٣ و ٢٠٥ "هجرة") راجع Islam Studies 1, p, 434 Migne Patrobog Graec وجاء فى حاشية ص ٢٤٨ من الجزء الأول من تراث الاسلام الترجمة العربية (١٩٢٦) وكان (أى يحيى أو يوحنا) مولى المأمون وهو خطأ لا أدرى من أين جاء به معرب الكتاب . فأغلب الظن أنه لم يدرك ما قبل عهد خلافة المأمون .